الكورونا ليست أول أوبئة لبنان ولن تكون آخرها

د. رياض غنام(*)

مقدمة

العالم منذ نشوئه، ظلّ محكوماً بانتشار عدد كبير من الأوبئة والأمراض القاتلة، وهي أكثر من أن تعد وتحصى. إلا أنها ظلّت محكومة بنتائجها الفتاكة، وشدة الخطورة الناتجة عنها. والتاريخ بمختلف مراحله القديم والوسيط والحديث. يذكر العديد من أنواعها وطرق مواجهتها، والخسائر التي نتجت عنها وهي بالملايين. ولعل الوباء الذي يجتاح العالم الآن والمعروف بوباء الكورونا Covid.19، والذي من شأنه أن يغيّر الكثير من معالم حاضرنا، نظراً للتداعيات الكبيرة على المجتمع البشري، سواء لجهة الخسائر البشرية التي ستلحق بالسكان، أم الخسائر الاقتصادية لجهة الانتاج وتراجع النمو الاقتصادي لدى دول العالم، أم لجهة تبدّل بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لجهة السلوكيات المجتمعية من عادات وتقاليد، وانعكاس ذلك على الوضع المعيشي، كل ذلك يدفعنا إلى تبين خطورة هذا الوباء، والوقاية من خطورته عبر الالتزام بالتعليمات التي أصبحت معروفة، والتسليم به كقدر آلهي بانتظار ظهور مضادات له على يد علماء واختصاصيين في علم مكافحة الأوبئة، توصلاً إلى اكتشاف لقاحات تضع حداً لانتشاره وتقضي عليه لاحقاً.

لقد عرف العالم عبر تاريخه عشرات الأوبئة التي غيّرت مجرى التاريخ البشري. منها طاعون جستنيان سنة ٥٤١م وأودى بحياة ما بين ٣٠ إلى ٥٠ مليون شخص، أي ما يعادل نصف سكان العالم آنذاك. وطاعون الدبلي المعروف بالموت الأسود، الذي انتشر في أوروبا بين عامي ١٣٤٧ ـ ١٣٥١ وأودى بحياة نحو ٢٥ مليون شخص. ومرض الجدري الذي عرفته القارتان الأميركيتان في القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وأودى بحياة نحو عشرين

(*) مدير عام شؤون الجلسات واللجان ـ مجلس النواب.

مليون شخص أي ما نسبته ٩٠٪ من سكان الأمريكيتين. أما وباء الكوليرا الذي ظهر في الهند بين سنتي ١٨١٧ و١٨٢٣، ثم انتشر في معظم الدول المجاورة، فلقد أودى بحياة الملايين قبل أن يتمكّن الطبيب البريطاني جون سنو من اكتشاف بعض الطرق التي تحدّ من انتشاره.

وفي تقرير لمنظمة الصحة العالمية، ورد فيه أن الإصابة في الكوليرا تصيب ما بين ١,٣٠٠,٠٠٠ وأربعة ملايين شخص، وقد وصفت هذا الوباء بأنه «الوباء المنسي». أما الأنفلونزا الإسبانية فقد أصابت سنة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ نحو ٥٠٠ مليون شخص، وتسبّبت بمقتل أكثر من خمسين مليوناً على مستوى العالم. وأعقب الأنفلونزا الإسبانية، الأنفلونزا الآسيوية سنة ١٩٥٧، ثم أنفلونزا هونغ كونغ ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠. ورغم أن هذه الأخيرة لم تكن قاتلة، إلا أنها ساعدت في اكتشاف الدور الحيوي لعملية التلقيح، لمنع تفشي هذا الوباء من خلال المتلازمة التنفسية الحادة والخيمة التي تعد مرضاً ينتج عن أحد فيروسات كورونا التي تصيب البشر، ويشبه تركيبها الوراثي، تركيب فيروس كورونا الجديد بنسبة ٩٠٪.

ومن الأوبئة التي عرفها العالم في السنوات العشر الأخيرة، أنفلونزا الخنازير ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠، وفيروس إبيولا ٢٠١٤ ـ ٢١٠٦، وفيروس كورونا الحالي الذي من المتوقع أن يصيب في النهاية ما بين ٤٠٪ و٧٠٪ من سكان العالم، حسب الدراسة التي أجرتها الجامعة الوطنية الأسترالية، وأنه سيتسبب بموت ملايين الأشخاص، وسيكلف نحو ٤،٢ تريليون دولار من الناتج المحلي الإجمالي العالمي.

ليس الهدف من هذا البحث دراسة فيروس الكورونا ومدى خطورته على الإنسان محلياً وإقليمياً، بعد أن أصبح عالمياً قلّما نجت من خطورته أي دولة أو أي مجتمع، بقدر ما اتخذناه عنواناً لتتبّع الأوبئة والجائحات التي اجتاحت المجتمع اللبناني، على مدى القرون الماضية، وما عاناه هذا المجتمع من خسائر بشرية واقتصادية، وما تعرّض له اللبنانيون من معاناة لحقت بمختلف طبقاتهم الاجتماعية، علّنا نستذكر أن ما نمرّ به اليوم، ليس إلا تكراراً لما عاناه الآباء والأجداد في القرون الخالية، وأن جائحة اليوم ليست إلا حالة من الحالات التي عرفها لبنان الأمس، وإن كانت تظهر بسلالات متطورة أو متبدلة.

لمحة عامة عن الأوضاع الصحية التقليدية:

حتى بداية عصر النهضة، كان السكان يعيشون حياة أقرب إلى حياة القرون الوسطى منها إلى العصر الحديث. وكانت الأوضاع الصحية للأهالي في ظل غياب الجامعات الطبية، والأطباء القانونيين، تعيش سيطرة الطب الشعبي الذي استمد مصادره من معينين مختلفين. أحدهما الطب النبوي، وطب ابن سينا والرازي وغيرهم. والآخر طب المغاربة والعجائز وما يرافقه من سحرة وشعوزة ودجالين. فكان أن اختلطت كل هذه الأمور، فسيطر الجهل والفوضى، واستغل بعضهم ضعف المرضى والمساكين وتعلّقهم بحبل الشفاء مهما كان واهياً، فبذلوا نقودهم في بعض الأحيان تخلصاً من أمراض وهمية، عن طريق فك الطلاسم أو الرصد وكتابة الحجب والتعاويذ. ولم تكن المدرسة الطبية في الأستانة، ومدرسة الطب العيني في مصر، لتتمكنا من تغطية النواحي الصحية في المشرق العربي، أو البدء بتخريج الأطباء. فلا عجب إذاً في أن يبقى هذا النوع من الطب الشعبي، أو الطب العربي شائعاً حتى أواسط القرن العشرين. ولا يخفى ما كان للعرب والأطباء المغاربة من شهرة وطول باع في هذا المضمار، كما اعتمد البعض أيضاً على بعض

الكهنة الذين اعتبروا بمنزلة الأطباء، وكانت علاجاتهم أقرب إلى الصواب وأقل ضرراً. لكن الذي أفقد الطب العربي المستند إلى طب الأعشاب مصداقيته وأهميته، دخول جماعة من المشعوذين والسحرة والدجالين. وقد زاد الأمر خطورة، اعتقاد بعضهم بما يسمى الرصد والخط والطلسم والعين وما شابه. وكانوا إذا أعجزهم الشفاء يعتاضون عن العلاجات بأن ينذروا الكنائس والمعابد، ويستعملون الشموع والبخور والأعشاب النابتة في جدران الأديرة والمعابد، ويلجأون إلى الأولياء والقديسين، ويقومون بزيارة المعابد والأضرحة، وهذه أمور لا يزال يؤمن بها كثيرون حتى يومنا هذا، رغم التقدم العلمي والصحي الذي نعيش فيه. أما العمليات الجراحية فلم تكن معروفة آنذاك، وجل ما عرفوه في الكسور أعمال التجبير التي كان يقوم بها الجزارون والرعاة. وتداووا أيضاً «بالكيّ في رؤوسهم أو في أعناقهم من الوراء أو في أرجلهم حتى الركب. ومنهم من كانوا يكتوون لغير داء، معتقدين أن الكي هو خير وسيلة لراحة الجسم». أو أنه آخر الدواء.

الطب والتطور العلمي الحديث

في بداية القرن التاسع عشر، بدأ الناس ينتهجون أسلوباً مختلفاً في البحث، فيتعرفون على الطب بمفهومه العلمي الصحيح البعيد عن الخرافات والأساطير، ويحاولون الربط بين الداء والدواء، وأن لا شفاء إلا بالمعالجة العلمية عن طريق أخذ الأدوية والعقاقير، وأنه لا تعارض في ذلك، مع الناحية الدينية، لأن من خلق الداء خلق الدواء، وهذا ما يمكن أن نعبّر عنه، ببدء النظرة العلمية والعقلية إلى ممارسة الطب، ومحاولة ربط السبب بالمسبّب، والعلّة بالمعلول.

في تلك الفترة كان تعداد السكّان محكوماً بثلاثة مؤشرات، أوّلها ارتفاع معدل الوفيات، وانخفاض متوسط الأعمار. وثانيها، الأمراض المسبّبة للضعف والوهن وعدم قدرة الطب على معالجة تلك الحالات. وثالثها، الانقلابات المفاجئة الناجمة عن الحروب والمجاعات والأوبئة. وفي ظل فقدان الوقاية والمعالجة الصحية، كانت بلاد الشام عامة عرضة لانتشار الأوبئة كالطاعون والجدري والهواء الأصفر والبرداء والخناق والسل والتيفوس وغيرها. وكان بعضها على جانب كبير من الخطورة، لا لأنه يصيب الأفراد فحسب، بل لأنه يقضي على العشرات منهم، وقد يفضي إلى القضاء على مجتمع بأسره. فضلاً عما يسببه من الخسائر الاقتصادية والاجتماعية. وكان الطاعون من أشد الأوبئة القديمة التي تفتك بالسكان، وكانوا يسمونه الواغش، وكثيراً ما فتك بأسرة وأدى إلى انقراضها بكاملها. وقد عرفته مصر إحدى وعشرين مرة بين سنتي ١٧٨٣ و١٨٤٨. أما جبل لبنان فقد عانى في خلال هذه الفترة، عشرات المرات من ظهور هذا الوباء وغيره، نظراً لاختلاط الأمراض بعضها ببعض، وصعوبة تشخيصها. وكانت العدوى تنتقل من الخارج بواسطة القوافل التجارية والحجاج وغير ذلك، كما حصل في وباء سنة ١٨٢٦ حيث عمّ وباء الطاعون أولاً شمال سوريا، ثم انتقل إلى حلب، وتميّز بشدته إذ كان يودي في كل يوم بحياة ألف إنسان حتى قضى على نصف سكان البلدان والقرى في جهات حلب. ومنها اتصل بحمص وحماه ودمشق والبقاع، وانتقل بعدها إلى لبنان، وعمّ ساحل بيروت وقرى الناعمة ودير القمر وبيصور وعين دارا، ثم امتد إلى النبطية وسائر قرى جبل عامل حتى أنه أتى تقريباً على ثلث سكان هذه القرى. وإذا كان الطاعون قد غزا لبنان عدة مرات في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فإن طاعون سنة ١٨٢٦ كان أردأها وأشدها فتكاً فقيل فيه «إنه مرض قتال لأن انسان لا يمرض إلا كم ساعة ويموت» وأن «الذين تصاوبوا لم يسلم منهم إلا القليل».

وعلى صعيد الوقاية من هذا الوباء، وتلافياً لمفاعيله المميتة، فقد كان حاكم جبل لبنان آنذاك الأمير بشير الشهابي، متشدّداً في اتخاذ الإجراءات الصارمة للحد من انتشاره. فأمر بعزل المصابين، ونقلهم إلى خارج القرية، أي إلى البرية. وكان يضع النواطير والمراقبين على الطرقات لمنع دخول الغرباء إلى القرية خوفاً من الاختلاط، وفرض على المشايخ حكام المقاطعات أوامره الصارمة، حتى أنه فرض العقوبة على من لا يمتثل أو يتجاسر على المخالفة، فأمر بجزائه وطرده من قريته (راجع نص الوثيقة المرفقة). وكان وباء الجبال أكثر رحمة بالعباد من وباء المدن والسواحل، نظراً لندرة الأمراض الخطيرة في الجرود العالية، حيث يعيش الكثير من السكان حتى التسعين عاماً. لذلك ما أن يظهر الوباء في المدن أو السواحل، حتى يبادر بعض الأهالي إلى النزوح إلى الجبال، وينعزل السكان داخل بيوتهم وقراهم خشية العدوى، وتقتصر أعمالهم على الضروري فقط. كما كانت تتعطل الطرقات وتنعدم التجارة، ويرافق ذلك غلاء شديد. وقد يأتي الجراد فيزيد من معاناة السكان وشقائهم، وتعم المجاعة فيموت الكثيرون منهم بسبب المرض أو وضعهم المأساوي العام. وقد يتدبر بعضهم الوقاية بالفرار «**إذا حل الوباء بأرض فاهرب سريعاً، وأقم بعيداً، وعد بطيئاً**». وهذا ما تمشى عليه بشير الشهابي نفسه ومدبّره جرجس باز، عندما فرا سنة ١٨٠٠ إلى عين تراز. وبشير اللمعي عندما انعزل في رأس الجبل في قمة دير مار شعيا. كما اختبأ مشايخ آل تلحوق في بعض قرى الغرب. وكان الاختلاط يقع في بعض الأحيان، فيلتبس الأمر في معرفة نوع الوباء. ويؤكد الطبيب أرتيمي رافالوفيتش الذي زار دير القمر إن مرض الطاعون هذا هو الذي ضرب البلدة سنة ١٨٤١، وقد انتقل إليها من صور، بواسطة الذين قدموا إلى الجبل، وأودى بحياة ١٦٢ شخصاً من أبناء هذه البلدة.

انتشار مرض (الواغش) الطاعون في المتن. ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م

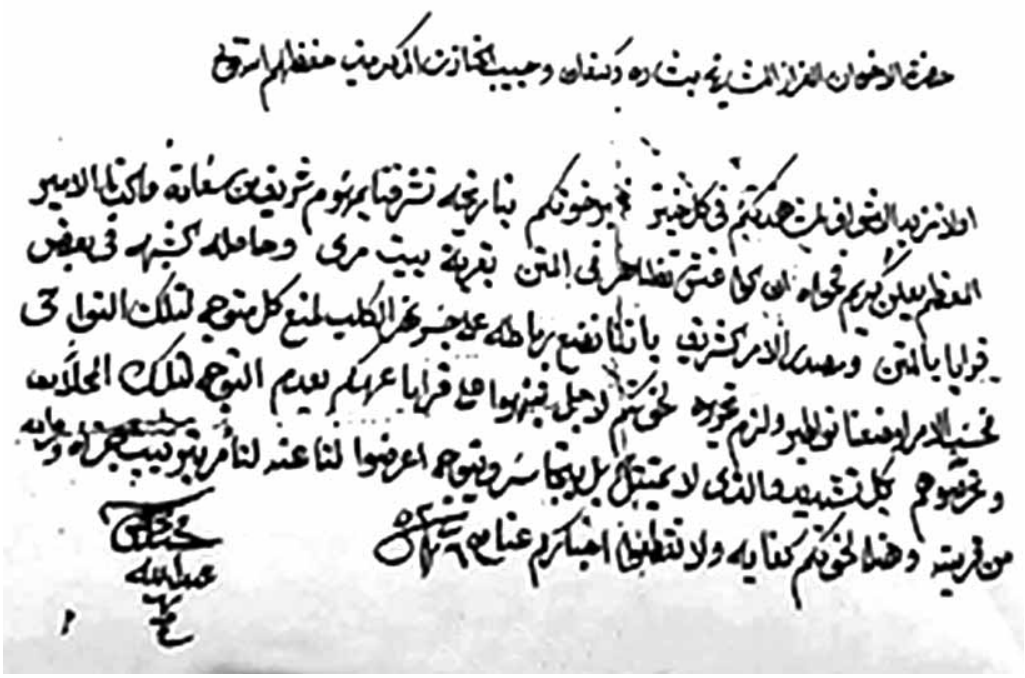

فرنجة الوثيقة

حضرة الإخوان العزاز المشايخ بشارة وكنعان وحبيب الخازن المكرمين حفظهم الله تعالى

أولاً: مزيد الأشواق لمشاهدتكم في كل خير نخبر خوتكم بتاريخه تشرفنا بمرسوم شريف من سعادة والدنا الأمير المعظم يعلن كريم فحواه أن الواغش تظاهر في المتن بقرية بيت مري وحاصله الشبهة في بعض قرايا المتن ومصدر الأمر الشريف بأننا نضع رباطه على جسر نهر الكلب لمنع كل متوجه لتلك النواحي فحسب الأمر وضعنا نواطير ولزم تحريره لخوتكم لأجل تنبهوا على قرايا عهدكم بعدم التوجه لتلك المحلات وتحرصّوهم بكل تشديد والذي لا يمتثل بل يتجاسر ويتوجه اعرضوا لنا عنه لنأمر بترتيب جزاه وطرده من قريته وهذا لخوتكم كفاية ولا تقطعوا أخباركم عنا في ٦ شوال سنة ٥٢.

محب مخلص
عبدالله شهاب

ومن الأمراض التي عرفها لبنان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مرض الجدري، وهو عريق في القِدم والفتك. وأسبابه ناتجة عن كثرة المخالطة، والمواصلات المتوافرة بين البلدان المتجاورة. وقد ضرب بلدة دير القمرة سنة ١٩١٣، فأودى بحياة الكثيرين، والذين أصيبوا به لم يسلم منهم سوى عشرين بالمائة فقط. وبالنظر للاهتمام بإجراء اللقاح فقد أسفرت النتيجة عن أن عدد الإصابات أصبحت منفردة، بحيث أنه كان يلقح قبل الحرب العالمية الأولى سنوياً، نحو مائة ألف شخص في متصرفية جبل لبنان، والعمل منصرف لتطبيق اللقاح مراراً عديدة في جميع القرى ونواحي لبنان.

كان للإجراءات الوقائية أهمية كبيرة في وقف انتشار الأوبئة وحصرها عند حدود معيّنة. لكن معالجة المصابين والمرضى، لم تكن لتتم بالوسائل العلمية لعدم وجود الأطباء والمستشفيات، ولجهل السكان أصول المعالجة الصحيحة، وهذا ما كان يرفع من نسبة الوفيات بين المصابين. وقد ظلّت الأوضاع الصحية تجري على هذه الوتيرة التقليدية حتى سنة ١٨١٠، عندما أدخلت جرعات من التلقيح ضد وباء الجدري على يد قنصل النمسا في بيروت بطرس لورالا. تلقّف الأمير بشير الاكتشاف الجديد، فأمر بإجراء التجارب عليه، فتم تلقيح بعض الأفراد الجبليين وأرسلوا إلى بلدة برجا الشوفية ليخالطوا المجدورين فيها، وعندما تحقق من نجاتهم، تلقّح هو وأهل بيته. ويذكر هنري غيز قنصل فرنسا في بيروت، أن السيد لورالا اكتشف في أثناء إقامته الطويلة في بيروت والجبل، حيث مارس الطب مهنته الأولى، اكتشف بقرة ظهرت عليها بثور ذات سائل كاللقاح، فقدم حينذاك تقريراً إلى أكاديمية الطب في إيطاليا، التي ما لبثت أن أعلنت اكتشافه.

أولت الدول الوروبية اهتمامها بالشأن الصحي، وحاولت حصر أوبئة البلاد المشرقية للحؤول دون امتدادها نحو بلادها، عن طريق العلاقات التجارية وانتقال التجار والمسافرين بين أوروبا وآسيا. لذلك قامت الجمعيات الأوروبية سنة ١٨٢٨ بإرسال بعثة طبية قوامها أربعة أطباء فرنسيين، لمعالجة الموبوئين بالطاعون. كما أرسلت الحكومة الفرنسية الطبيب سوكه سنة ١٨٤٧ ليشرف على الحالة الصحية في الجبل، ويفيدها عن سير الطاعون كي تتقيه. وبلغ من اهتمام الدول الأوروبية في بلاد المشرق، أن أنشأوا في فترة الحكم المصري لبلاد الشام، الجمعية الصحية التي تألفت من قناصل دول فرنسا والنمسا وإسبانيا والدانمرك واليونان، لمساعدة السلطات الرسمية في منع تسرّب الأوبئة وحماية البلاد منها.

كذلك وفي ظل السيطرة المصرية، خضعت بلاد الشام لإجراءات صحية متطورة. فأنشات سنة ١٨٣٤ المحجر الصحي (الكرنتينا) في بيروت على يد محمود نامي بك محافظ بيروت، ومساعدة الفرنسي غوس، وكلوت بك ناظر الصحة العام. ثم ما لبثت أن أصبحت بيروت مركز إدارة الصحة العامة في الساحل، وأجبرت جميع المراكب والسفن الأجنبية والوطنية أن تأتي إليها للفحص والضبط. ويبدو أنه كان لقناصل الدول الأوروبية وخصوصاً فرنسا، دور في قيام المحجر، عندما كلّف ابراهيم باشا ابن محمد علي، وهو القائد العام للقوات المصرية في بلاد الشام، القنصل الفرنسي هنري غيز، في إنشاء المحجر في الكرنتينا. الأمر الذي جنّب بيروت وجوارها طوال خمسة عشر شهراً، الطاعون الذي كان متفشياً في الأستانة وأزمير وقبرص ومصر وغير ذلك من البلدان.

التنافس التبشيري وقيام كليات الطب الحديث

ظلّت الأوضاع الصحية والطبية تتخبّط بين التقليد والحداثة حتى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر. وكان بعض الأطباء الذين لم يكن بحوزتهم شهادة قانونية، قد حظوا بشهرة واسعة بسبب تمرّسهم بالعمل الطبي ومداواتهم المرض. وكان أبرزهم جبور الجعدي وعبدالله اليازجي وميخايل الجلخ وطنوس بن نادر المعلوف والخوري يعقوب المعلوف ويوسف المعلوف وخليل الصليبي، ومخايل مشاقة، وكل هؤلاء ذكرهم عيسى اسكندر المعلوف في كتابه دواني القطوف. كما قام بعض الأطباء الأوروبيين بدور مهم في تطبيب الأعيان وعامة الناس منهم لويس برتران وسوكه وغيرهما.

لكن الحدث المهم الذي تحقّق قبيل الاحتلال المصري لبلاد الشام، واتخذ منحى علمياً ومهنياً. كان إنشاء الكلية الطبية السلطانية في اسطنبول، ثم أسس محمد علي باشا والي مصر، مدرسة الطب البشري سنة ١٨٢٨ في القاهرة. وكان عميدها الدكتور كلوت بك الذي جمع حوله عدداً من الأطباء الأجانب، وأنشأ المستشفيات الثابتة والنقّالة. وقد كان لهذا التطور أثره على الحياة الطبية في لبنان، خصوصاً بعد دخوله مع سائر بلاد الشام دائرة الحكم المصري. وأصبح باستطاعة بعض الأهالي الميسورين إرسال أبنائهم، إما إلى العاصمة الأستانة، أو إلى مصر، لدراسة العلوم الطبية وحيازة شهادتها القانونية. وكان من أبرز الطلاب الذين تخرّجوا من المدارس الطبية لهاتين الجامعتين، درويش باز ابن عبد الأحد باز. كما أرسل الأمير بشير عدداً من الطلاب لدراسة الطب في مدرسة القصر العيني في مصر، منهم غالب البعقليني وابراهيم النجار ويوسف الجلخ ويوسف مرهج لطيف وسليم المملوك وغيرهم.

أدى تراجع السلطة المصرية عن بلاد الشام، إلى الإنكفاء عن دراسة الطب، ولو قدّر لهذا الحكم أن يستمر لتمكّن المجتمع اللبناني من تلقّي عشرات الأطباء العائدين إليه من الديار المصرية. لكن تحوّل الكليتين الأميركية واليسوعية إلى كليتين طبيتين بعيد سنة ١٨٦٥، جعل من بيروت مركزاً طبياً يؤمّه ليس فقط أبناء الجبل والمناطق المجاورة، بل مختلف الطلاب الوافدين إلى هاتين الكليتين من البلدان القريبة والبعيدة. وقد نتج عن قيام الكلية الطبية الأمريكية، إنشاء مستشفى دعي مستشفى الأميركان. كما أقام اليسوعيون مستشفى خاص بهم. هذا وسبق للسلطنة العثمانية حسب قول الطبيب الروسي أرتيمي رافالوفيتش، أن أنشأوا مستشفى عسكري عثماني في بيروت، وقد زاره هذا الطبيب أثناء جولته في سوريا ولبنان وفلسطين سنة ١٨٤٩. وقد ضم هذا

المستشفى ما بين ٧٠ إلى ٨٠ سريراً. وكان فيه من المرضى نحو عشرين مريضاً، وضعوا على أسرّة خشبية، وكان الطبيب المشرف عليه، ضابطاً عثمانياً يحمل رتبة ميرآلاي.

كذلك كان هناك المستشفى الذي أنشأه سنة ١٨٥٧ الأخوان مخايل وجبور طوبيا من مالهما الخاص، في بلدة جبيل، وقد زوّداه بعشرة أسرّة لمعالجة المرضى. لكن المصادر التاريخية لا تعلمنا بكيفية المعالجة، ولا بالطبيب الذي كان يقوم بمهام المستشفى، ولا بالعمليات الجراحية التي أجريت فيه. أما بدء عصر الجراحة مع التخدير فلم يعرفه لبنان إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد الدكتور جورج بوست George Post عندما أعطى المخدّر إلى كلب، وقد أجرى عمليته هذه في بلدة عبيه سنة ١٨٦٥، قبيل نقل الكلية السورية الإنجيلية من عبيه إلى بيروت، ليصبح اسمها لاحقاً الجامعة الأميركية. ثم جاء نقل مدرسة غزير إلى بيروت ليصبح اسمها جامعة القديس يوسف، وذلك في إطار الصراع الديني التبشيري بين البروتستانت والكاثوليك.

في الفترة التي شهد فيها لبنان قيام جامعتين كبيرتين للطب، كان جبل لبنان يتوطد فيه نظام جديد عرف بنظام المتصرفية. ورغم أن هذا النظام لا يدرج في بنوده التأسيسية أي فقرة أو مادة تتعلق بالأمور الصحية، كما أنه لم تشكّل فيه أي إدارة صحية معروفة، أو منظمة صحية رسمية تعنى بالشؤون الصحية. إلا أنه رغم ذلك فإن المتصرّف الأول داوود باشا استدعى الدكتور كوسين الإيطالي التبعة، وعيّنه بوظيفة سر طبيب طوال مدة حكمه ١٨٦١ ـ ١٨٦٨ كما استخدم من الأطباء كل من غالب أفندي الخوري، وسليمان أفندي مخول، وزامبا أفندي في قصبات جبيل وكسروان وبعبدا.

وفي متصرفية رستم باشا، عُيّن بوظيفة سر طبيب المتصرفية، الإيطالي ميدانا أفندي وألغيت مأموريات الأطباء الثلاثة السابق ذكرهم. كما عيّن كل من داوود مشاقة، وسليمان مشاقة، طبيبين رسميين لأفراد الجندرمة في كل من بعبدا وبيت الدين.

وفي زمن متصرفية واصا باشا، عيّن حبيب أفندي الخوري بوظيفة سر طبابة. كما عيّن ثلاثة أطباء لكل من بيت الدين والمتن ودير القمر. وبين سنتي ١٨٨٢ و١٨٨٥، عيّن الطبيب داوود مشاقة بوظيفة سر طبابة، فاستخدم طبيباً واحداً، لكل من أقضية المتن والشوف وجزين والبترون. وفي سنة ١٨٨٦، عيّن الطبيب مشاقة بصورة رسمية، سر طبيب لمركز المتصرفية، وبقي في تلك الوظيفة حتى سنة ١٩٠١، فخلفه الدكتور نجيب أفندي الأصفر. وبعد سنتين عيّن للسر طبابة، نجيب أفندي الخوري، ثم خلفه صعب أفندي الملاط. وبعد سنة ١٩١٢، عيّن طبيب لمركز المتصرفية، وطبيب لكل من أقضية كسروان والمتن وجزين ودير القمر وزحلة والبترون والشوف، وكان بعضهم براتب رسمي، والبعض الآخر بصورة فخرية من دون راتب شهري. وطوال فترة العمل بنظام المتصرفية، لم يؤسس سوى مستشفيين في كل من بيت الدين وبعبدا.

منذ عام ١٨٦١، صدر فرمان سلطاني، حرّم على من ليس بيده إجازة من مكتب الطب الشاهاني، أو من المكاتب الطبية الأجنبية، أن يمارس الطب والتطبيب، كما حرّم على من ليس بيده إجازة، أن يتخذ لنفسه لقب دكتور. لكن هذا الفرمان لم يُبدأ بتطبيقه في لبنان إلّا لاحقاً، أي في سنة ١٨٦٨. وكان «مفتش أطباء جبل لبنان السنيور كوسيني يقوم بدوراته التفتيشية فيتفقد أحوال الأقضية ويعطي توصياته الطبية، ومنها لدى تفتيشه قضاء جبيل، وجوب تبليط المسلخ، ونقل المدافن إلى خارج البلدة وعلى بعد لا يقل عن ألفي متر عنها. كما منع الدفن في المعابد والكنائس وفي جوار البيوت. ومن

اللافت اهتمام حكومة السلطنة بمكافحة داء الجدري بالتلقيح المجاني حسب ما أوردته جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق، الصادرة في العاصمة الأستانة.

لم تلبث الإجراءات الطبية المعول بها في عاصمة السلطنة، أن عمت سائر الولايات العثمانية، فنرى الطبيب جورجي أفندي الخوري منهمكاً سنة ١٨٧٤ بتلقيح الأولاد في قضاءي المتن وزحلة ضد الجدري. كما نرى مجلس إدارة جبل لبنان (المجلس النيابي اللبناني آنذاك) منهمكاً في صيف سنة ١٨٧٥ بطبع الإعلانات الصحية لمكافحة الهواء الأصفر، والإلحاح على المتصرف بوجوب إقامة الكرنتينة بين المناطق اللبنانية وبيروت، لا سيما بعد أن خففت من شدة انتشار الوباء قبلاً، عندما أقيمت في البقاع على حدود ولاية الشام.

ولما كانت ظروف الموازنة لا تسمح بتعيين طبيب لكل قضاء من أقضية لبنان، فارتأى المتصرّف رستم باشا سنة ١٨٧٩، أن يصار إلى تدريب عدد من رجال الضابطة في فن تلقيح الأهالي ضد الجدري، عن يد حبيب أفندي طبيب المركز، وإلحاقهم بمراكز الأقضية، للقيام باعمال التلقيح ضد هذا الوباء.

بعد إلغاء النظام الأساسي لجبل لبنان، أثناء الحرب العالمية الأولى، وتعيين علي منيف بك متصرفاً على الجبل، أسست للمرة الأولى إدارة صحية في لبنان، فكان قوامها: مدير وطبيب المركز وطبيب سيار وكاتب، وكانت مهمتها رؤية الأمور الصحية. كما عيّن أربعة أطباء سيارين، وسبعة أطباء فخريين للأقضية، وتسعة أطباء فخريين للنواحي. وعيّن بالوكالة لمديرية الصحة الدكتور سامي بك الفاخوري، وقد خلفه في هذا الموقع كل من ضيا فؤاد أفندي، ثم الدكتور فؤاد حمدي، ثم حسني محي الدين بك. ومما هو جدير بالذكر أنه في تلك الفترة، ولأجل تشخيص الأمراض السارية والعمومية، جرى تأسيس مختبر Laboratoire، كما تم إنشاء مركز (أرشيف) لحفظ الوثائق الصحية. فضلاً عن توزيع الكينين (الكينا) مع لقاح الكوليرا ولقاح الجدري ومداواة أصحاب الأمراض الزهرية مجاناً.

خاتمة

بعد أن تتبعنا الأوضاع الصحية للبنان وبعض المناطق المجاورة له، وما تعرّض له من جائحات وأوبئة على مدى قرون عديدة، والخسائر التي لحقت بالسكان سواء في الأرواح وفي الاقتصاد، وكيفية ترقي الحياة الفكرية، وما نتج عنها من انتشار للوعي لدى العديد من الطبقات الاجتماعية، حيث بدأ الناس كما الحكام باتباع نهج علمي صحيح، وخصوصاً في موضوع الطب والصحة العامة، فبدأوا يربطون العلة بالمعلول، والداء بالدواء، مبتعدين شيئاً فشيئاً عن طب المشعوذين، وعن الأساطير والخرافات، فكان أن سجلت تلك الفترة من تاريخ لبنان بداية النظرية العلمية والعقلية، وبدأ العمل بوضع دعائم الطب الحديث الذي ظهرت نتائجه في أ واخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وما وباء كورونا الذي ظهر مؤخراً، وعمّ أكثر من ٢١٠ من دول العالم حسب تقرير منظمة الصحة العالمية، الذي نقلته وكالة رويترز وأظهر إصابة نحو ١١٥ مليون شخص، وأودى بحياة أكثر من ٢,٦ مليون، فضلاً عن تدمير اقتصاديات الأكثرية الساحقة من دول العالم منذ بدء ظهور هذا الوباء في الصين وحتى نهاية شهر شباط سنة ٢٠٢١، إلا حلقة في سلسلة الأوبئة التي غالباً ما غيرت مجرى التاريخ، وهي على الدوام تجدّد نفسها بسلالات متطورة قد تكون أكثر فتكاً من سابقاتها، نظراً لتأثيرها على منظومة القيم الإنسانية وعادات البشر وتقاليدهم الاجتماعية، ونظم العمل والتعليم والمفاهيم الثقافية المتبعة

في ظل المتغيرات التكنولوجية والتقنية، إضافة إلى التخريب المنهجي الذي يرتكبه الإنسان بحق البيئة والطبيعة، وما يحدثه من تلوث في الفضاء والبحار والأرض التي يقيم عليها، إلا أن الأمل يبقى في جهود العلماء والباحثين والمكتشفين الذين يعملون على اكتشاف اللقاح الناجع خدمة للإنسان أينما كان، والإنسانية جمعاء.

مصادر ومراجع البحث

- الأسود، ابراهيم : **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**، مطبعة القديس جاورجيوس، جزء ٢، بيروت ١٩٢٧.
- أبو سمرا، إميل : **قبل أن ننسى**، مؤسسة الخدمات الطباعية، بيروت ١٩٧٤.
- أبو صعب، يوسف : «**إجا الطاعون من بيروت وعشعش في العبادية**» مجلة اوراق لبنانية، عدد نيسان ١٩٥٧.
- أوين، روجر : **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي ١٨٠٠ ـ ١٩١٤**، ترجمة سامي الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٩٠.
- بازيلي قسطنطين : **سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي**، ترجمه عن الروسية يسر جابر، راجعه منذر جابر، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٧.
- بليبل، إدمون : **تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ أسرها**، مطبعة العرائس، بكفيا ١٩٣٥.
- الجميل، الحكيم أمين : **الطب في البلاد من مئة سنة**، مجلة المشرق، العدد ٢٧، السنة ١٩٢٩.
- الحاج، بدر : **رسائل الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط وابراهيم باشا إلى الليدي استير ستانهوب**، جريدة السفير، السبت ١٩٨٦/٢/٢٧.
- حقي، اسماعيل : **لبنان مباحث علمية واجتماعية**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩.
- الحداد، فؤاد سليم : **تاريخ التخدير في لبنان**، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ٤٠ السنة ١٩٨٢.
- الخوري، أغناطيوس : **مصطفى بربر حاكم أيالة طرابلس وجبلة ولاذقية العرب**، مطبعة الرهبانية اللبنانية، بيروت ١٩٥٧.
- الخوري، شاكر : **مجمع المسرات**، قدم له الياس قطار، دار لحد خاطر، بيروت، طبعة ثانية ١٩٨٥.
- الخوري، فؤاد : **من مشارف المئة، لبنان وجوه حضارية**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٨٧.
- الخياط، أسعد : **صوت من لبنان**، نقلها عن الإنكليزية مخايل صوايا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٧.
- الدبس، يوسف : **الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل**، قدم له الأب ميشال حايك، دار لحد خاطر، بيروت، طبعة ثالثة ١٩٨٢.
- رستم، أسد : **آراء وأبحاث**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٦٧.
- رستم، أسد : **لبنان في عهد المتصرفية**، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٣.
- رستم، أسد : **بشير بين السلطان والعزيز**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٦.
- سليمان، حسين سلمان : **الإصلاحات الاجتماعية والمظاهر الحضارية في المرتفعات الجبلية اللبنانية**، مجلة تاريخ العرب والعالم العددان ٧١ و٧٢، السنة ١٩٨٤.
- الشهابي، حيدر أحمد : **الأمير بشير والدولة العثمانية ١٧٨٨ ـ ١٨٣٠**، جمعه القس بدر حبيش، نشره وعلّق على حواشيه الخوري بولس قرألي، مطبعة العلم، بيت شباب ١٩٣٣.
- الشهابي، حيدر أحمد : **الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان**، نشره نعوم مغبغب، مطبعة السلام، مصر ١٩٠٠.
- صفير، الخوري بطرس: **الأمير بشير الشهابي**، دار الطباعة والنشر اللبنانية، بيروت ١٩٥٠.
- ضاهر، مسعود : **بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين**، دراسة في التاريخ الاجتماعي من خلال

مذكرات العالم الروسي أ. كريمسكي، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥.

- عمار، يحيي حسين : **الأصول والأنساب،** دار الضحى للنشر، بدون تاريخ.
- قطاية، سليمان : **مذكرات كلوت بك، وقصة أول مدرسة عربية للطب الحديث،** مجلة العربي الكويتية، العدد ٢٥١.
- كرامة، روفائيل : **حوادث لبنان وسورية من سنة ١٧٤٥ ـ ١٨٠٠،** عني بنشرها وتعليق حواشيها المطران باسيلوس قطان، منشورات جروس برس، بدون تاريخ.
- المعلوف، عيسى اسكندر: **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف،** طبع بالمطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨.
- وثائق المديرية العامة للآثار (بيروت).
- وثائق المركز الوطني للمعلومات والدراسات (المكتبة الوطنية في بعقلين).

- Chevallier, Dominique: La société du Mont-Liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris 1971.
- Guys, Henri : Beyrouth et le Liban, Editions Dar Lahad khater, Beyrouth, Liban 1985.
- Lamartine, Alphonce : Le voyage en Orient, Librairie Hatier, Paris 1925.
- Touma, Toufic : Paysans et Institution Féodales chez les Druses et les Maronites du Liban du XVII^{ème} siècle à 1914, Puplications de l'Université Libanaise, Bey. 1986, 2 T.